

القرآن الكريم

أول مصادر التصور الإسلامي للفنون

بقلم : محمد الحسن اوي

بوسعنا أن نعدد المصادر التي يمكن أن يستخدمها التصور الإسلامي للفنون أو ما يطلق عليه النظرية الإسلامية للفنون: مثل القرآن الكريم والحديث الشريف وعلم الجمال الإسلامي والفنون التي أنجزها المسلمون عبر التاريخ وأخيراً الفنون التي أنجزها غير المسلمين ، منظوراً إليها من خلال التصور الإسلامي نقداً وحواراً ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها .

توجيهاته وتشريعاته كذلك .

١ - فهو أولاً يلفت النظر لرؤية عظمة الخالق سبحانه وتعالى وإبداعه في جمال مخلوقاته : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض ممدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ (١) .

٢ - وعمل على ترفيق المشاعر وترهيف الحس وتنمية الذوق الجمالي سواء في شكله التعبيري المعجز أم في توجيهاته : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، واكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ (٢) .

٣ - وعمل على تجميل الحياة نفسها حتى في مجال العبادة وترتيل القرآن : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم

ولدى مقارنة هذه المصادر نجد أن القرآن الكريم يحتل المقام الأول في الأهمية ، فضلاً عن كونه المصدر الأول للتشريع الإسلامي ، وهو أيضاً قمة فنية في حد ذاته من لدن حكيم خبير ، أنزله اللطيف الذي خلق السموات والأرضين وما فيهن من جمال وإبداع وكائنات لا حد لحصرها واستقصاء أبعاد الجمال فيها ، وقضت حكمته تعالى أن يكون جمال الأسلوب التعبيري فيه جمالاً معجزاً يسحر الأبواب ولا تستطيع محاكاته ، بل لا بد لها من الإقرار بعظمته ، حتى ولو حملها العناد على الكفر بالله تعالى .

لذلك سوف نقصر حديثنا على معطيات هذا المصدر الأول .

احتفاء القرآن بالجمال :

من تعريفات الفن صنعة الجمال ، جمال الصوت أو الشكل أو الصورة ، وفي القرآن الكريم احتفال بالغ بهذا الجمال ، لا في أسلوبه التعبيري البياني المعجز فقط بل في

ضوابط ومعايير تضبط الفن وتضع حرمة في واقع الحياة

جماليات القرآن الفنية :

إن الحديث عن هذا الجانب هو من باب تأكيد القرآن الكريم للاحتفاء بالجمال ، وهو في الوقت نفسه كشف عن ذخيرة ضخمة من الثروة الفنية الإسلامية لا سيما في المجال الأدبي . وحين ندعو للإفادة من نماذج هذه الذخيرة : لانتقصد بطبيعة الحال أن يلتزم الفن الإسلامي بها وحدها وبشكل حرفي ، سواء في الموضوع أو في طريقة الأداء ، ولكننا نقصد أن يلتقط التوجيه الذي تحمله تلك النماذج بمبدلولة الواسع لا بمبدلولة الحرفي ، ويعمل في محيط هذا التوجيه على نطاق واسع دون أن يتقيد بقيد موضوعي أو فني . . ملتزماً فقط بأن يستمد تصوره للحياة والأحداث والأشياء من التصور الإسلامي أو على الأقل لا يصادم في النهاية شيئاً من المفاهيم الإيمانية (٩) .

١ - التصوير الفني في القرآن : يرى الشهيد سيد قطب - وهو محق - أن القرآن الكريم جعل التصوير الفني أدواته الأولى الأثيرة للتعبير وقد كشف عن مجالي هذه الجمالية الفنية في كتابه الموسوم بهذا العنوان وفي مؤلفاته الأخرى لا سيما (في ظلال القرآن) و « مشاهد القيامة » ، لذلك نكتفي بهذه الإشارة وإلى أن المرحوم سيد قطب أضاف إلى حديثه عن التصوير الفني حديثاً لا يقل أهمية عن القصة في القرآن ، وعن الحوار وعن النماذج البشرية في الكتاب المذكور نفسه .

٢ - جماليات السورة في القرآن الكريم : للمرحوم سيد قطب أيضاً جهود مشكورة في الكشف عن جماليات

يعلمون . قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿٣﴾ . وقال : ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ (٣) .

٤ - وأكد على القيمة الجمالية ومكانتها فتحدث عن جمال الحدائق من غير إشارة إلى ثمارها : ﴿ أفمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً ، فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . إله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ (٤) .

٥ - وهل قيمة الجمال تتعادل مع جمال النعمة ، فالأنعام لا يقل منظرها الجميل وهي سارحة متهادية في قيمتها عن قيمة منافعها المادية ، كالدفع والأكل : ﴿ والأنعام خلقها لكم ، فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ (٥) .

٦ - وهل للقيمة الجمالية أو الزينة وظيفة أو هدفاً ، ولم تخلق عبثاً ، ولها عملها في هذا الكون المحسوب حسابه ونظامه : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ (٦) .

٧ - وبنفس القدر حرم القرآن التشويه وتغيير خلق الله قطعاً وجدعاً وصلماً ، جاء على لسان إبليس : ﴿ ولأضللنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله . ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ (٧) .

٨ - وأخرج الزينة من مجال التقرير إلى مجال الإباحة ثم وصل بها في النهاية إلى مجال الوجوب : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . . . ﴾ (٨) .

لإمانع أن تضم دائرة الفن الإسلامي مالا يصاحبه التصور الإسلامي

السورة فنياً وذلك في افتتاحيات تفسيره لسور القرآن ، فقد أشار إلى وحدة السورة وإلى جو السورة وإلى شخصية السورة ، وظلال السورة والإيقاع الموسيقي في السورة . فضلاً عن شخصيات أجزاء من القرآن بعينها . وهذا كله إثراء للتصور الفني الأدبي في الإسلام وللنقد الأدبي كذلك .

٣- الأمثال في القرآن : وهو فن من فنون الأدب والقول عند العرب وغيرهم من الأمم ، وفي القرآن الكريم مجموعة وافرة خصصها بعض الدارسين بمؤلفات مستقلة .

٤- الفاصلة في القرآن : وهي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر وقد أتيح لي أن أدرس فواصل القرآن الكريم في كتاب مستقل قدمته رسالة جامعية تتناول الجانب الفني منها ، كما تناول الجانب العلمي ، سواء بدراسة الفاصلة بذاتها أو بعلاقاتها مع الآية أو المقطع القرآني أو مع بقية السورة ، بل في القرآن كله .

الضوابط والمعايير :

على الرغم من احتفاء القرآن الكريم بالجمال ، ومن الثروة الفنية المعجزة التي ضمها بين دفتيه ، فإن التصور الإسلامي للفنون يبدأ أول ما يبدأ من معايير وضوابط تضبط الفن وتضع له حركته في واقع الحياة ، سواء من ناحية أشكاله أو اتجاهاته ومفاهيمه ، أو من ناحية الأهداف التي يتغيها (١٠) ، ويمكن أن نتلمسها أيضاً في ثنايا هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ، لم لا وهو يحمل تصوراً شاملاً للكون والحياة والإنسان ، لا يحمله كتاب آخر في

الأرض ، يمثل هذا الشمول والإحاطة ، ويمثل هذه السهولة والوضوح ، وهو بذلك دستور كامل لأي منهج فني يريد أن يعبر عن الحياة ، بتصوير إسلامي أولاً ، وكذلك على مستوى كوني (١١) .

١- الضوابط :

١- تجنب الشرك بالله تعالى : حيث كان - في وقت التشريع - خلط واضح بين التعبير الفني بصناعة التماثيل والصور واتخاذ هذه الأصنام آلهة من دون الله (١٢) . ومع ذلك فإن للأستاذ محمد الغزالي اجتهاداً في هذا الموضوع مفاده (أن النحت كان جائزاً في الماضي ، وكان دليل الجواز كما ذكر الأصوليون أن ما هو محرم في ذاته لا يباح لدين من الأديان ، بمعنى أنه لا يمكن لدين من الأديان - من آدم إلى محمد - أن يبيح الزنى أو الكذب .. فسيدينا سليمان كان يصنع التماثيل .. ولكن عندما أقبل الناس على عبادة التماثيل حرمت من أجل ذلك ، أي أنها حرمت لغير ذاتها ، ومن أجل شيء يتصل بها) (١٣) .

٢- عدم ضياع الوقت إلا في حال الاستمتاع أو الترويح عن النفس : الاستمتاع في الإفضاء بما في النفس أو الإبداع الفني ، والترويح مثلاً : قال تعالى : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفاً ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ..﴾ يعملون له ما يشاء من محارِب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور . وفي الفقرة الخاصة عن احتفاء القرآن بالجمال شواهد أخرى .

٣- تجنب إفساد الأخلاق : قال تعالى : ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ..﴾ .

ب - المعايير :

لا يكفي الموقف السلبي بتجنب الأوامر والنواهي السابقة لكي يصبح الفن إسلامياً ، بل هناك معايير أخرى إيجابية يجب أن تتوافر حتى تصف الفن بأنه إسلامي ، ولا يمانع الأستاذ محمد قطب أن يضم إلى دائرة الفن الإسلامي ما لا يصادم التصور الإسلامي ، وهو رأي ذو وجهة .

١ - أن ينبثق الفن من التصور الإسلامي للوجود الكبير ، أو - على الأقل - لآ يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ، ولا ينحرف عن هذه المفاهيم (١٤) .

٢ - أن يكون هادفاً ، أي غير عابث : ﴿ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ﴾ ، وقد ذكرنا أن الاستمتاع والترويح عن النفس ليسا من اللهو أو العبث المحرمين .

٣ - وحدة القيم : أي القيم الجمالية والروحية والخلقية ، ويمكن التعبير عن ذلك بتماسك القيم وتكاملها . وكلما افرقت هذه القيم رفض الإسلام ذلك ، مثل رفضه للعجب والكبر ؛ لأنه مناف للقيم الإسلامية : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ، وهو مناف للقيم الخلقية ويدخل صاحبه النار - كما جاء في حديث المصطفى عليه السلام : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » . وهو ضد الجمال ؛ لأنه ينافي البساطة والصدق ، ولأنه يرسم صورة فظة متعالية تنافي الذوق الإسلامي ﴿ وهو الذي حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ (١٥) .

٤ - التساوق مع الفطرة : فطرة الإنسان من روح وطين

متوازنة ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ وفطرة الكائنات الأخرى أيضاً التوازن ، وآية توازنها ذلك النظام الدقيق المضبوط الذي لا يختل قيد شعره . . (١٦) .

الهوامش :

- (١) فلسفة الفن - محاضرة للدكتور جمال عطية - المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ص ٣ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٣ .
- (٣) المصدر السابق .
- (٤) نظرة فقهية لبعض الآداب والفنون - إمام علي الشيخ - محاضرة - ص ٨ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٨ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٩ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٩ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ٩ .
- (٩) منهج الفن الإسلامي - محمد قطب ، ص ١٥٦ ، ط ٤ .
- (١٠) فلسفة الفن ، محاضرة ، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ص ١٣ .
- (١١) منهج الفن الإسلامي ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
- (١٢) فلسفة الفن ، محاضرة ، ص ٤ .
- (١٣) تعليق محمد الغزالي على محاضرة فلسفة الفن ، ص ١٢ .
- (١٤) منهج الفن الإسلامي ، ص ١٤١ .
- (١٥) نظرة فقهية لبعض الآداب والفنون ، محاضرة ، ص ١٣ .
- (١٦) منهج الفن الإسلامي ، ص ٣٣ ، ٤١ .